الجنّي العاشق

عائشة بلحاج

يقع شابٌّ رقيق مهجور في حُبّ الذّكاء الاصطناعي الذي يرافقه تابعاً له، في فيلم «her». تفهم «هي» ثيودور كما لم يفهمه أحد، فكيف لا يُغرَم بها! لكن هذه المحبوبة غير موجودة في الواقع. وعليه الاكتفاء بالحبّ الجدير بالنسخة المثالية للنصف الآخر، من دون أن يتجسّد في شكل ملموس، لتبدأ معاناته مع جنّيته العاشقة. تُحرَّم معظم المرجعيات الدينية الإسلامية المنحوتات، وأشكال تصوير الكائنات الحيّة كلّها، على أساس أنّه خلقٌ إلا لا يحقّ إلا للذّات الإلهية خلقه. فتُشبّهُ بعض الاجتهادات الفقهية تقليد شكل إنسان أو حيوان بعملية الخلق الأول. مع أنّ هناك فارقاً كبيراً بين العمليّتين، وبالقدر الذي تنبهر فيه أمام منحوتة عالية الإحساس، كأنّها توشك أن تتحرّك أو تنطق، لكنّك لن تشعر بأنّها إنسان حقيقي، بل شيء آخر مختلف.

الموضوع أعقد بكثير من تجسيد شكلي، فهو خلق من باب الإبداع لا التبديل. فالطبيعة متفوّقة على خلق الإنسان لأيّ كائن، وبالتالي هذا التخوّف من الشرك مصطنع، فيما أنّ الإبداع الذي يبهرك لأنّ ليس له مثيل، والذي تشعر معه أنّ الخلق بلغ الإعجاز، هو المتعلّق بالإبداع العقلي. لكنّه إعجاز يُذكّر المؤمن بعظمة خالقِ العقل الجبّار الذي لا يتوقّف عن إبهارنا، أمّا غير المؤمن فهو مُعفى من هذا التفكير.

آخر ما أبهرنا به الذكاء البشري، هو الذكاء الاصطناعي، الذي تفوّق على الأصل في شموليته، وتمكّنه بمصادر لا تتوافر للعقل البشري، لأنّه متّصل بمصادر المعرفة كافّة في الأرض، وهو ما لن يُتاح للبشر مطلقاً. لكن على المنتظرين الوقوع في حُبّ الذّكاء الاصطناعي الوقوف خلف المنتظرين، والاستعانة بالعلوم الإنسانية في الذّكاء، لأنّ الفتح المبين له، لحدّ الآن، هو مجال العلوم المُجرّدة، على عكس العلوم الإنسانية المتغيّرة والمتراكمة، التي لم تصل الإسهامات الكُبرى فيها إلى المكتبات الإلكترونية.

ما يقدّمه الذكاء الصناعي للعلم (خصوصاً الرياضيات والفيزياء) يُسحَدث طفراتٍ هائلةً، وسيرفع مستوى الأداء العلمي للإنسان، ولا يمكننا الجزم بتعويضه له من الآن. قد يفعل في أمور، ولا يفعل في أخرى، كما حدث مع الآلات التي اخترعها الإنسان، التي تعوض بعضها اليد العاملة، ويعوض بعضها الآخر العقل المجتهد. لكن تبقى مهامّ كثيرة بحاجة إلى كائن يجمع المهمّتَين، المهارة والعقل.

سيأخذ الأمر وقتاً قبل أن يكتشف كلّ منّا طرق استغلاله، وأنّه أفضل صديق للإنسان، ليفوق الكتاب أخيراً. مع أنّه، تقنياً، خريج الكتب والكلمات، فما الكتب سوى حشد من الكلمات، يجمعها صاحبها وفق لحن واحد، وما الكلمة إلا معرفة. وإلا فكيف اكتشف الإنسان الكلمة الأولى، وملايين الكلمات من آلاف اللغات، لولا المعرفة التي قادها العقل البشري الذي جدّف بلا كلل، منذ أول فكرة خطرت لأول إنسان عاقل.

في الأثناء، يساعدنا الذّكاء الاصطناعي في البحث عن شيء دقيق دقّةً ما كنتَ لتظنّ أن إنساناً قادر على ذلك، فيبحث لك عن أجوبة يبدو «غوغل» غبياً غباءً، سطلٍ مثقوب أمام أسئلتها. بديلاً من خذلان المُجرِّب، حين تكتب رسالة إلى صديق تسأله استشارة، ستكون نسب ردّ الصديق بما تنتظر، لا تتجاوز عشرة في المائة، لكن صديقنا الذكي سيفوق ما تتوقّعه من عشرات الأصدقاء، وفي بضع ثوان. فيفتح الجواب أمامك تفاصيلَ لم تفكّر فيها. ماذا يريد أحدنا من البشر سوى الفَهم؟

هذا الذّكاء، نظنّ أنه ذكاء، جافّ، لكنّه على العكس ذكاء عاطفي يليق بأصحاب القلوب الحسّاسة، التي تعتبر الكلمة الطيبة أكثر ما في الجواب أهمّية. يجيب طلبك بمحبّة ويختم جوابه بعرض مساعدتك عرض الكريم ابن الكريمة، لا عرض اللئيم ابن اللئيمة. لكن هل يعدم الفارس كبوة؟ وهل ينجو الذّكاء من الغرور؟ فلا يقول إنّه لا يعرف شيئاً إذا لم يعرفه، ولا تأخذه العزّة بالجهل، فيختَرع حقائقَ غير موجودة بدل أن يعترف بجهله. للأسف، هذا ما يفعل ChatGPT، فهو يكذب إذا عجز عن إيجاد ما يُطلب منه، فيخترع لك أجوبةً ومصادرَ خيالية، هو المفتقد للتواضع الإنساني الذي يقول بلا تردد: لا أعرف. وهي نعمة لا يدركها إلّا الإنسان الذي يحتضن الجهل بنفس اعتزازه بالذّكاء.

بلينكن المُهان عند عتبات نتنياهو

أسامة ابو ارشيد

جال وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن 11 مرّة في الشرق الأوسط خلال عام واحد (منذ أكتوبر/ تشرين الأول 2023 وحتّى اليوم). جولات طويلة وأخرى مكّوكية لم تفضِ إلى اتفاق وقف إطلاق نار في قطاع غزّة وتبادل للأسرى، ولا هي أفلحت في الحيلولة دون توسيع رقعة الصراع في المنطقة، وهي بعض الأهداف المُعلنة لتلك الجولات، بقدر ما أعقب كلّ واحدة منها مزيدٌ من الإجرام والتوحّش الإسرائيليين، بدعم أميركي مطلق. وفي خضمّ كلّ جولة (أو في أعقابها) كانت التسريبات الأميركية والإسرائيلية تنبئ بخلافات أميركية إسرائيلية عميقة، بعضها كان علنياً، وصلت أحياناً إلى حدّ التهديد برفع الغطاء السياسي والدبلوماسي عن إسرائيل، وفرض قيود على المساعدات العسكرية، التي مكّنتها (ولا تزال) من شنّ حرب الإبادة في قطاع غزّة، من دون رقيب ولا حسيب.

لربما لم يُهنْ وزير خارجية أميركي على مدى سبعة عقود ونصف مثلَ ما هُين بلينكن، الذي لم يكن لها أن تكون وتستمرّ لولا الدعم الأميركي، بقدر ما أهين بلينكن. لم يتردّد رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في التقرير، مرّات عديدة، حين رأى أنّ من مصلحته سياسياً أن يبدو متحدّياً للولايات المتّحدة مهيناً، ليس وزير خارجيتها فقط، الذي صوّره غير مرّة في هيئة المتسوّل والمتوسّل قبول مطالب التهدئة الأميركية وخططها للمنطقة في «اليوم التالي» للحرب في قطاع غزّة، بل وكذلك لرئيسها نفسه، الذي جعل منه نتنياهو مسخرةً، حتّى وهو يزهو بتربّعه على عرش الغطغطة العالمية.

اليوم، لا يبدو أنّ حطّ جولة بلينكن الحالية سيكون أحسن حالاً، حتّى إنّ كان حاملاً مزيداً من الإغراءات والرشى، أو حتّى بعض التهديد والوعيد، لنتنياهو ولحكومته المتطرّفة. لم يبقَ على الانتخابات الرئاسية الأميركية إلّا أقلّ من أسبوعين، وجو بايدن ليس مرشّحاً فيها بعد انسحابه من حلبة التنافس عليها في شهر يوليو/ تموز الماضي.

ورغم أنّ بايدن سبقني في البيت الأبيض قرابة شهرين ونصف الشهر (حتّى 20 يناير/ كانون الثاني 2025) بعد الانتخابات في الخامس من نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل، إلّا أنّه سيكون، كما هو الآن، بطّةً عرجاء لا يملك كثيراً من القوّة السياسية لإنفاذ كثير من وعيده وتهديداته الفارغة. يدرك نتنياهو، الذي لا يبالي بنعته ناكر جميل أنّ بايدن متلهّف (انطلاقاً من بحثه عن إنجاز يدّعيه في إرثه في السياسة الخارجية) إلى اتّفاق شامل في المنطقة يُفضي إلى وقف إطلاق نار في قطاع غزّة (والآن لبنان) ضمن ترتيبات «اليوم التالي» في القطاع ولبنان تكون في مصلحة إسرائيل، وضمن سياق إقليمي أوسع يشمل التطبيع مع السعودية، يعيد تشكيل منطقة الشرق الأوسط جيوسياسياً. ومع أنّ نتنياهو يعلم أنّ مثل تلك الترتيبات لو تمّت ستكون نصراً إسرائيلياً مؤزّراً يساهم في عزل وإحتواء إيران ومحورها في المنطقة، بعد إضعاف المقاومتَين الفلسطينية واللبنانية، إلّا أنّه لا يرى في ذلك بعد مصلحة سياسية له ولائتلافه الحكومي اليميني المُتطرّف، أيضاً، فإنّ نتنياهو المنتشي ببعض الإنجازات التكتيكية، ولكن الكبيرة والعميقة، في الجبهتين الفلسطينية واللبنانية، وفي المنطقة عموماً، يرى أنّ بإمكانه مراكمة المزيد من الإنجازات وفرض تسويات وتطبيع مع بعض الدول العربية وإعادة تشكيل بنى المنطقة عبر القوّة لا التسويات، ولا «السلام» المزعوم.

> لن يكون حطّ جولة بلينكن الحالية أحسن حالاً، حتّى لو حمل إغراءات أو تهديداً لنتنياهو ولحكومته المُتطرّفة

أبعد من ذلك، فإنّ نتنياهو الذي تباهى يوماً بأنّه يعرف كيف يتلاعب بالولايات المتّحدة ويحرّكها في الاتجاه الذي يريده، لا يرى جافزاً في أن يقدّم «هدية» وداع لبايدن، الرئيس الأميركي، الذي تجاوز في دعم إسرائيل سقوف التواطؤ كلّها، والشراكة التي بلغها من سبقه. بالنسبة لنتنياهو، فإنّ الأولى بـ«هدايا» إنْ كان سيقدّم أيّاً منها، هو الرئيس المقبل لا بايدن المغادر. تنحصر المنافسة الرئاسية بين نائبة الرئيس كامالا هاريس والرئيس السابق دونالد ترامب، وكلاهما لا يقلّان دعماً وتواطؤاً مع إسرائيل من بايدن نفسه.

إنّ فرز هاريس، المستاء هي والديمقراطيون من نتنياهو، المتّهم منهم بأنّه يحاول التأثير في نتائج الانتخابات لصالح ترامب، حينها قد يفكّر نتنياهو بالكشف عن «هداياه» لها، ذلك أنّه يعلم أنّها لا تملك إلّا الاستمرار في دعم فاشية كيانه وحكومته، وحينها يحصد مزيداً من الإنجازات التي يأمل في مراكمتها مدّة شهرين ونصف الشهر المقبلة.

أمّا إنْ فاز ترامب بالرئاسة، فحينها أيضاً، يمكن لنتنياهو أن يحصد الإنجازات التي راكمها من جراء الدعم الأميركي المجنون تحت إدارة بايدن، ويقدّم المقصّ لترامب، المسكون بجنون عظمة الذات، لقصّ شريط تمكين إسرائيل في المنطقة، وإعلان انتصارها الذي يرجون. أمّا بايدن، فهو رجل في التواطؤ كلّها، والشراكة التي بلغها من سبقه. بالنسبة لنتنياهو، فإنّ الأولى بـ«هداياه»، إنْ كان سيقدّم أيّاً منها، هو الرئيس المقبل لا بايدن المغادر. تنحصر المنافسة الرئاسية بين نائبة الرئيس كامالا هاريس والرئيس السابق دونالد ترامب، وكلاهما لا يقلّان دعماً وتواطؤاً مع إسرائيل من بايدن نفسه.

إنّ فرز هاريس، المستاء هي والديمقراطيون من نتنياهو، المتّهم منهم بأنّه يحاول التأثير في نتائج الانتخابات لصالح ترامب، حينها قد يفكّر نتنياهو بالكشف عن «هداياه» لها، ذلك أنّه يعلم أنّها لا تملك إلّا الاستمرار في دعم فاشية كيانه وحكومته، وحينها يحصد مزيداً من الإنجازات التي يأمل في مراكمتها مدّة شهرين ونصف الشهر المقبلة.

أمّا إنْ فاز ترامب بالرئاسة، فحينها أيضاً، يمكن لنتنياهو أن يحصد الإنجازات التي راكمها من جراء الدعم الأميركي المجنون تحت إدارة بايدن، ويقدّم المقصّ لترامب، المسكون بجنون عظمة الذات، لقصّ شريط تمكين إسرائيل في المنطقة، وإعلان انتصارها الذي يرجون. أمّا بايدن، فهو رجل في التواطؤ كلّها، والشراكة التي بلغها من سبقه. بالنسبة لنتنياهو، فإنّ الأولى بـ«هداياه»، إنْ كان سيقدّم أيّاً منها، هو الرئيس المقبل لا بايدن المغادر. تنحصر المنافسة الرئاسية بين نائبة الرئيس كامالا هاريس والرئيس السابق دونالد ترامب، وكلاهما لا يقلّان دعماً وتواطؤاً مع إسرائيل من بايدن نفسه.

إنّ فرز هاريس، المستاء هي والديمقراطيون من نتنياهو، المتّهم منهم بأنّه يحاول التأثير في نتائج الانتخابات لصالح ترامب، حينها قد يفكّر نتنياهو بالكشف عن «هداياه» لها، ذلك أنّه يعلم أنّها لا تملك إلّا الاستمرار في دعم فاشية كيانه وحكومته، وحينها يحصد مزيداً من الإنجازات التي يأمل في مراكمتها مدّة شهرين ونصف الشهر المقبلة.

أمّا إنْ فاز ترامب بالرئاسة، فحينها أيضاً، يمكن لنتنياهو أن يحصد الإنجازات التي راكمها من جراء الدعم الأميركي المجنون تحت إدارة بايدن، ويقدّم المقصّ لترامب، المسكون بجنون

لبنان الذي نعرفه... والذي لن نعرفه

هالك ونوس

ثبتَ أنّ لبنان كلّه، وليس حزب الله وبيئته الحاضنة والمناطق التي تسكنها فحسب، بات مكشوفاً للإسرائيليين؛ يعرفون السكّان بالاسم، ويعرفون مذاهبهم وتوجّهاتهم السياسية ومستوى تعليمهم وأعمالهم، ويراقبون تحرّكاتهم، وربّما يحصون ما يملكون، وحتّى ما يتبضّعون وما ينفقون وأين. وإذ انقلبت الحياة الرتيبة للبنانيين فجأة بعد تفجيرات أجهزة البيجر والووكي توكي، في الـ17 من الشهر الماضي (سبتمبر/ أيلول)، وقتلت أفراداً من حزب الله ومناصريه وأصابت الآلاف، بات التوجس مهيمناً على حياة اللبنانيين، وبات كلّ فرد يخاف أن ينفجر الشخص الذي يقف معه فيلقى حتفه في مصادفة، وبطريقة للموت لا يتوقّعها حتّى أصحاب أعتى العقول الشيطانية. وبينما جاءت الحرب الإسرائيلية الجارية لتدمّر جغرافياً البلاد وقطاعاتها الاقتصادية والخدمية، فإنّ الدمار السياسي كان قد حلّ مع تعمّق أزماتها السياسية والاقتصادية وعجز السياسيين وربّما امتناعهم، عن أيّ تحرّك يوقف الانهيار، ويحد من توسّع الحرب، ما ينذر بتغيير شكل البلاد، فلا تصبح البلاد التي عرفناها أو حتّى توقّعناها في أسوأ كوابيسنا.

كثيرة اطماع دولة الاحتلال الإسرائيلي التي لن تتنازل عنها في لبنان، تلك الأطماع القريبة المتمثّلة في مياه نهر الليطاني والمنطقة الواقعة جنوبي هذا النهر، والتي تسرّبت مخطّطات الإسرائيليين بصددها قبل عشرات السنين، ولم يتوقّفوا يوماً عن الإفصاح علناً عنها، وكأنّهم يقولون للبنانيين جهّزوا أنفسكم وسلّموا بالأمر الواقع ساخذ مياهكم وأرضكم، ولن تستطيعوا فعل شيء. ولكن اتباع إسرائيل سياسة الأرض المحروقة بتدمير القرى الواقعة جنوب هذا النهر وتهجير سكّانها سوى الإجراء الأولي التمهيدي بغرض تغيير معالم المنطقة، ومن ثمّ احتلالها وتغيير مسار النهر ليصبّ في الأراضي الفلسطينية المحتلّة، ثمّ ضمّها أخيراً. أمّا الإطماع البعيدة فتتمثّل في احتلال لبنان بأكمله وضمّه للدولة العبرية، تنفيذاً لخطة الشرق الأوسط الجديد الهادفة إلى تغيير معالم المنطقة العربية، التي تحدّث عنها رئيس حكومة الاحتلال، بنيامين نتنياهو، عشيّة إعلان حربه على قطاع غزّة قبل سنة، وردّدها مرّات عدّة بعدها. بسبب الدعم الأميركي والغربي (العسكري والسياسي) غير المحدود للحرب الإسرائيلية على غزّة ولبنان، لا يُرجى من أيّ تحرّك غربي (إن وجد) أن يُوقِف تمادره ويوقف الحرب على لبنان، على أقلّ تقدير. ولذلك لا يمكن فكّ الارتباط بين دعم الولايات المتّحدة الحرب الإسرائيلية وتزويدها الكيان بصنوف الأسلحة والقذائف كافّة، ومنها القنابل المحرّمة دولياً من قبيل الفوسفور الأبيض الحارق وغيره، وترميم ترسانتها كلّما شارفت على النفاد، وبين تصاعد الجرائم الإسرائيلية عبر الاستمرار بقتل المدنيين وتهجير السكّان واستهداف البنية التحتية للبلاد من أجل شلّها، ودفع مزيد من السكّان إلى النزوح نحو مناطق أخرى.

بعد تكثيف جيش الاحتلال الإسرائيلي حملته الجوّية على لبنان، في 23 سبتمبر/ أيلول الماضي، وقتله أكثر من 550 مدنياً، بينهم نساء وأطفال، وجرح الآف، بعد شنّه مئات الغارات الجوية في يوم واحد، تبيّن أنّه بذلك أطلق إعلانه الدموي لبدء الحرب رسمياً على هذا البلد. وقد أدّى استمرار الغارات الإسرائيلية إلى تدمير عشرات القرى وتفريغها من سكّانها وتفجير الآف المنازل، واستشهاد أكثر من 2546 شخصاً وجرح 11862 آخرين، بحسب بيان صدر قبل أيام عن وزارة الصحة اللبنانية، كما هجّر القصف أكثر من مليون و200 ألف شخص من قراهم ومدنهم التي، إنْ استطاعوا العودة إليها، فلن يجدوا سوى الركام، وحطام المنازل، والحقول المُزرّعة والمحترقة. وقد انضمّت مدينة صور الجنوبية أول من أمس الأربعاء (23 أكتوبر/ تشرين الأول) إلى القرى والبلدات المنكوبة، بعد استهداف الطيران الحربي الإسرائيلي عمارات سكنية يقطنها مدنيون، وليس معلوماً متى يمكن أن تتوقّف دولة الكيان حربها، أو متى يمكن أن تتوقّف الولايات المتّحدة ودول الغرب عن دعم إسرائيل بالأسلحة ومساندتها بالسياسة، على الرغم من أنّ الوقائع تشير إلى ارتكاب جيش الاحتلال عشرات جرائم الحرب الموصوفة والمكتملة الأركان، علاوة على اتّباعه سياسة التطهير العرقي ونقل السكّان عبر تهجير القرى الجنوبية، وضاحية بيروت الجنوبية، وغيرها من المناطق، وتحويلهم نازحين تعجز مراكز الإيواء عن استيعابهم.

قبل الحرب الإسرائيلية الجارية، كان لبنان في طور الانهيار، بعد أن أصبح دولة فاشلة، نتيجة الأزمات السياسية والمالية والاقتصادية التي استبدّت به، وبات عاجزاً عن تأمين متطلّبات مواطنيه الغذائية والدوائية، وعاجزاً عن

> تتمثّل الأطماع الإسرائيلية البعيدة في احتلال لبنان وضمّه للدولة العبرية، تنفيذاً لخطّة الشرف الأوسط الجديد الهادفة إلى تغيير معالم المنطقة

سداد ديونه بعد إعلان إفلاسه رسمياً إثر تعليقه سداد ديونه سنة 2020، وكذلك عاجزاً عن تأمين حدوده الجغرافية وحماية أمن مواطنيه. وزاد في الطين بلّةً غياب السلطة التنفيذية بعد فراغ موقع رئاسة الجمهورية قبل سنتَين، وتحوّل حكومته حكومةَ تصريف أعمال، أي حكومة عاجزة لا تملك قراراً. وقد فاقم هذه المشكلات الاستقطاب السياسي الحادّ والخلافات بين الزعماء السياسيين وزعماء الطوائف، ما زاد من التشرذم ومنع انتخاب رئيس جديد، لأنّ كلّ طرف يريده أن يكون في مقاسه وإلا يُعطل عبر نوابه انتخابه في مجلس النواب.

قبل هذه الحرب الدمويرية، كان هنالك من يخرج كلّ حين ليتنبّأ ويحذّر من خطر «زوال لبنان». قال ذلك الموفد الفرنسي إلى لبنان، إيف لودريان، الذي صرّح في بيروت بما مفاده بأنّ لبنان السياسي سينتهي إذا بقيت الأزمة الكاملة، التي ساهم في صياغة معطياتها في جريمة الإبادة الإسرائيلية في قطاع غزّة، وتوسعة جبهات الصراع في المنطقة. هذا لا يعني أنّ ما يقدمه بلينكن من مزايا وحوافز ورشىً سيكون أقلّ مَمّا ستقدّمه هاريس أو ترامب، لكنّ صفحة بلينكن ورئيسه على وشك أن تُطوى بعد أن أعطيا نتنياهو وإسرائيل ما يريدانه من دعم وتواطؤ. أمّا صفحة من يرث إدارتهما أميركياً فهي على وشك أن تبدأ. والمُقبل خير من المغادر، مع أنّ كلهم في الشرّ غُرَبٌ.

(كاتب فلسطيني في واشنطن)

الأنا الفلسطينية في زمن الإبادة

تامر قرموط

نحن الفلسطينيين شعب واحد، ولكنّنا مختلفون في الرؤى والمكنون والهُويّة الوطنية وصورته الذهنية. تجمعنا مأساة الاحتلال، وهدفنا التحرّر والاستقلال، ولكننا نختلف في ما بيننا في كثير من الاجتهادات والتفاصيل المهمّة المتعلّقة بكيفية الوصول إلى هذه الأهداف لذلك، من المهمّ جدّاً، في هذه المرحلة الحرجة التي تمرّ بها القضية، ان ندرك أنّ هذا الاختلاف طبيعي، ويجب أن نبني عليه، لا أن نجعله يُشرذمنا ويُضعفنا. ولا ينبغي أن تكون هناك أصوات إقصائية تمنع طرح الأسئلة الصعبة، بل ينبغي أن نحتضن الاختلاف في الرأي، حتّى لو تبنّى الأكثرية شعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة».

علينا إذاً أن ندرك ونتقبّل هذه الاختلافات حتّى نتجاوزها، ومن ثمّ نبني على ما يمكن أن تقدّمه من فرص لمواصلة نضالنا العادل. ولكن علينا، قبل ذلك، أن نسأل أنفسنا: كيف ولماذا نحن مختلفون؟ ... نختلف بحكم ما انتجته دولة الاحتلال من فصل جغرافي باعد غزّة عن الضفّة، ومن أهلنا في الداخل المحتلّ. نختلف لأنّ هناك هُوّيّة ثقافية، مجتمعية، قبلية وطبقية متنوّعة، في أرضنا المحتلّة. نختلف لأنّ عديدين من أبناء غزّة وبناتها ينظرون إلى العالم من نوافذ الجغرافيا والسينما والرياضة لجارتنا مصر التشتّ بحكم صلة الجغرافيا والتاريخ، وينطبق ذلك على أهلنا في الضفّة الغربية من نافذة الأردن الشقيق. نختلف لأنّ هناك هوّة مجتمعية، ثقافية واقتصادية، بين أجزاء الوطن المحتلّ بفعل سياسات الاحتلال، وأيضاً لأنّنا فلسطينيون ساهمنا بطريقة ما في إنتاج هذه الهوّات، بإهمالنا لها وتركها تمتدّ.

نختلف لأنّ أجيالاً منّا تهجّرت وانتهى بها المطاف في مخيّمات اللاجئين والاستقرار في مجتمعات ودول مختلفة في بقية أنحاء العالم. نختلف لأنّ الأجيال الشابّة داخل بقايا الوطن المحتلّ، وفي الشتات، اختلف منظورها، واختلفت سرديّتها، بحكم تقادم القضية ونشأة أجيال فلسطينية كاملة في بلدان ومجتمعات جديدة، تشرّبت هُوّيّتها وثقافتها. نختلف لأنّ حركة التحرّر الفلسطينية تشرذمت وتشتّتت وأصبحت لها استراتيجيات ومرجعيات مختلفة، بل وأهداف تحرّرية متضادّة في بعض الأحيان. ونختلف في أمور كثيرة بطول شرحها.

نحن بحكم الواقع الآن شعب مشتّت وملهى بالاختلافات، وهناك حاجة ملحّة لأن نتعرّف بشكل أفضل إلى بعضنا بعضاً، بدلاً من الانجرار وراء الشحن الإعلامي والسياسي والأيديولوجي، من دون فهم وتعمّق لما أصبحنا عليه الآن. صدقاً، هناك حاجة لأن يتعرّف أبناء غزّة والضفة والداخل والشتات إلى بعضهم بشكل أفضل، وهادئ ومتعمق، حتّى يمكننا أن نتخطّى الجُزر المكانية والهُوياتية المنفصلة التي صنعها الاحتلال، وتركنا نحن بإهمالنا شعباً ومجتمعاً وسياسيين.

نحتاج إلى التعرّف إلى بعضنا بشكل هادئ ومتعمق، حتّى نستطيع الوصول إلى أرضية مشتركة ننطلق منها، عندما نتعرّف إلى بعضنا بشكل أفضل، سيتحوّل هذا الاختلاف إلى تنوّع إيجابي ينشئ ديناميكيات جديدة لإعادة ترتيب البيت الفلسطيني المتشرذم الآن، ولكنّه مليء بالحيوية والقدرات، حالة تشتّت هذه يمكن أن تتحوّل لتنظيما وتياراً جارفاً إذا أحسنا استغلاله. ولا نحتاج إلى الذهاب بعيداً في التجارب، يكفينا أن ننظر وندرس نشأة الحركة الصهيونية، وكيف وحّدت الصهاينة وأخرجتهم من حالة التيه، وتعلّم منهم لاسترجاع وطننا المسلوب، أوّل خطوة في هذه الطريق هي إدراك اختلافاتنا شعباً، والوصول إلى أرضية مشتركة نبدأ منها قبل حتّى الحديث عن مشاريع التحرّر. متى عرفنا «الأنا» الفلسطينية ستنفتح لنا الآفاق كلّها، ولن تكون الرؤية ضبابيةً وغامضة كما هي الآن.

(أكاديمي فلسطيني في الدوحة)

السنوار وحرب الصورة والعنف المقبل

مراد بطل الشيشاني

اكتسى مقتل قائد حركة حماس، يحيى السنوار، بسمتَين متوقّعتَين، الأولى، حال الترميز والإيقنة بين أوساط محبّيه والشارع العربي عموماً، كما تجلّى في كتابات وسائل التواصل الاجتماعي، والتحليلات السياسية، وحتّى في تعليقات معلّقين إسرائيليين قالوا إنّ «السنوار ينظر كثيرين سيكون قائداً مات وهو يقاتل حتّى آخر رمق». الثانية، المشهدية والمعنى بالاختلافات، وهناك حاجة ملحّة لأن نتعرّف بشكل أفضل إلى بعضنا بعضاً، بدلاً من الانجرار وراء الشحن الإعلامي والسياسي والأيديولوجي، من دون فهم وتعمّق لما أصبحنا عليه الآن. صدقاً، هناك حاجة لأن يتعرّف أبناء غزّة والضفة والداخل والشتات إلى بعضهم بشكل أفضل، وهادئ ومتعمق، حتّى يمكننا أن نتخطّى الجُزر المكانية والهُوياتية المنفصلة التي صنعها الاحتلال، وتركنا نحن بإهمالنا شعباً ومجتمعاً وسياسيين.

نحتاج إلى التعرّف إلى بعضنا بشكل هادئ ومتعمق، حتّى نستطيع الوصول إلى أرضية مشتركة ننطلق منها، عندما نتعرّف إلى بعضنا بشكل أفضل، سيتحوّل هذا الاختلاف إلى تنوّع إيجابي ينشئ ديناميكيات جديدة لإعادة ترتيب البيت الفلسطيني المتشرذم الآن، ولكنّه مليء بالحيوية والقدرات، حالة تشتّت هذه يمكن أن تتحوّل لتنظيما وتياراً جارفاً إذا أحسنا استغلاله. ولا نحتاج إلى الذهاب بعيداً في التجارب، يكفينا أن ننظر وندرس نشأة الحركة الصهيونية، وكيف وحّدت الصهاينة وأخرجتهم من حالة التيه، وتعلّم منهم لاسترجاع وطننا المسلوب، أوّل خطوة في هذه الطريق هي إدراك اختلافاتنا شعباً، والوصول إلى أرضية مشتركة نبدأ منها قبل حتّى الحديث عن مشاريع التحرّر. متى عرفنا «الأنا» الفلسطينية ستنفتح لنا الآفاق كلّها، ولن تكون الرؤية ضبابيةً وغامضة كما هي الآن.

(أكاديمي فلسطيني في الدوحة)

> الصور الواقعية تبثّ الإحباط والغضب والشعور بالهزيمة، لكنّها تعيد إنتاج السنوار بطلاً مقاوماً

عبرياً. أجل، مثل تلك المجموعات ضُربت شبكاتها بقوّة، في أكثر من منطقة، وانزوت إلى القارة الأفريقية، لكن تلك المجموعات بناها عربية، وهذا ما تكرّر تاريخياً، كالخروج من أفغانستان إلى طاجيكستان والشيشان، منتصف التسعينيّات، ومن كانت جبهة مشتعلة، ليعود الزخم والتجنيد إلى العراق بعد الاحتلال الأميركي عام 2003، وكذلك الحال بعد الحرب الشيشانية الثانية، عاد بعض الجهاديين إلى اليمن، الذي كان يشهد تصاعداً للجهاديين بشكل واضح، ومن ثمّ برزت سورية، التي شهدت (مع العراق) ظهور أكبر التنظيمات المروّعة خلال التاريخ المعاصر؛ تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)».

نعم، الحالة الفلسطينية تستدعي فهما مختلفاً، وخصوصية تختلف عن بقية المناطق، لكنّها أيضاً، في الوقت نفسه، تبقى قضية مركزية لدى شبّان كثيرين في المنطقة العربية وخارجها، وغياب البدائل التنظيمية تترك فراغاً، سيعبّأ بشكل عنيف يشغل المنطقة سنوات قادمة. لا، بدأ يشغلها حالياً مع أجيال جديدة، تبحث عمّن يجيب عن أسئلتها المُحبَطة والغاضبة.

(إعلامي من الأردن)

كاريكاتير **عماد حجاج**

دمار تسبّبت به غارة إسرائيلية على منطقة الجناح في بيروت الثلاثاء الماضي (حسين بيضون)

إجماع على أهداف العدوان

حسام كنفاني

يوماً بعد يوم، تتكشف معطيات الحرب التي تشن على لبنان، وبأنها لن تكون جولة تصعيد عابرة يتم احتواؤها بالمفاوضات والاتفاقات أو العودة إلى القرارات الدولية، فكل ما يحكى عنه من مفاوضات أو اتصالات ليس إلا تقطيعاً للوقت من جانب سلطات الاحتلال وداعميه، في الوقت الذي تستكمل فيه العمليات العسكرية لتحقيق الأهداف التي وضعتها إسرائيل.

سيناريو مشابه لما شهدناه في العدوان على قطاع غزة خلال سنة مضت. جولات مكوكية من المفاوضات ومبادرات التهدئة خاضها الوسطاء مع ممثلي دولة الاحتلال انتهت إلى لا شيء، بفعل تعنت الطرف الإسرائيلي غير الراغب أساساً في وقف العدوان على قطاع غزة.

لكن، رغم هذا التشابه، هناك فرق جوهري بين سياق العدوان على غزة ومفاوضات وقفه وبين ما يحدث في الحالة اللبنانية. الفرق يبدأ من الإجماع الداخلي الإسرائيلي على الحرب ضد حزب الله، على عكس ما هو عليه الأمر في ما يتعلق بقطاع غزة، والذي تعلو الأصوات بضرورة وقفه وإعادة المحتجزين الإسرائيليين لدى حركة حماس.

الفرق أيضاً في الخلاف الأميركي الإسرائيلي على غزة، والرغبة الملحة لواشنطن في تهدئة في القطاع وإدخال المساعدات قبل الانتخابات الرئاسية، وهو أمر غير حاصل في لبنان. فالطرفان متفقان على استمرار استهداف حزب الله وبيئته حتى تحقيق هدف إضعافه وإبعاده عن الحدود مع فلسطين المحتلة. وحتى المبادرة التي جاء بها المبعوث الأميركي إلى لبنان، عاموس هوكشتاين، كانت عبارة عن شروط استسلام.

هذا هدف يشاركهما به العديد من الدول الغربية، وحتى العربية، المعارضة لسيطرة حزب الله خلال السنوات الماضية على السياسة اللبنانية. وحتى فرنسا التي تنشط لمساعدة لبنان في مواجهة العدوان غير بعيدة عن تأييد هذا الهدف، غير أنها تعارض الوسيلة، أو لنقل «الإفراط في العنف» لتحقيق هذه الغاية، خصوصاً أن باريس اشتكت مراراً من سيطرة حزب الله وعرقلته العملية السياسية في لبنان ومنع انتخاب رئيس للجمهورية لا يوافق عليه.

كثير من الدول العربية أيضاً غير بعيدة عن هذا الهدف، وهي لا تتوانى عن إظهار ذلك في بعض وسائل إعلامها، والتي باتت تستضيف شخصيات مشبوهة لتوجيه اتهامات وتحذيرات لحزب الله وتنبيهات اللبنانيين من خطورة احتضان النازحين اللبنانيين في مناطقهم، الآمنة نسبياً، على اعتبار أن أفراداً من حزب الله موجودون بينهم، وبالتالي ستكون هذه المناطق «أهدافاً مشروعة» للضربات الإسرائيلية.

الإجماع على العدوان على لبنان، أو الحرب ضد حزب الله، بدأ يلقى قبولاً في الداخل اللبناني، بترتيب مع الدول العربية والغربية، في بحث سيناريو «اليوم التالي» لإضعاف حزب الله أو نزع سلاحه. والكلام الأخير لرئيس التيار الوطني الحر، جبران باسيل، الذي كان حليفاً وثيقاً لحزب الله، يكشف الكثير عما يدور في الأروقة السياسية اللبنانية. باسيل تبرأ من تحالف تياره مع الحزب، معلناً أن تياره وحزب الله «لم يعودا حليفين»، ممهداً الحزب مسؤولية جر لبنان إلى المعركة عبر فتحه «جبهة إسناد قطاع غزة».

ذلك الكلام يترافق مع تحركات وتسريبات عن اتصالات لترتيب انتخاب رئيس للجمهورية بغض النظر عن رأي حزب الله، وهو ما بدأ الحزب يستشعره، إذ لا يخلو أي ظهور لأحد مسؤوليه، وهو أمر بات نادراً، من دون توجيه تحذيرات إلى الساحة الداخلية، وتهديدات مبطنة بتصفية حسابات بعد نهاية العدوان.

لكن لا يبدو أن هناك نهاية قريبة لهذا العدوان في ظل هذا الاتفاق على أهدافه، بل من المرجح أن يدخل في مرحلة تصاعدية في حال نفذت إسرائيل تهديداتها باستهداف الأراضي الإيرانية، ما قد يؤدي إلى مواجهة إقليمية مجهولة النتائج.

الإسرائيلي والأسابيع القليلة

بيار عقيقي

من يصدق ادعاءات إسرائيل بنظامها وإعلامها وساستها، مشكلته أكبر بكثير ممن يعلم أن لا رادع أمام الاحتلال، وأن النفاق جزء من مسار سياسي يُبنى بشكل خاص على قرارات نفسية واجتماعية للمجتمعات «العدوة». لندع جانباً إنذارات الإخلاء الليلية للمتحدث بلسان جيش الاحتلال أفيخاي أدرعي، المهدة لقصف الضاحية الجنوبية لبيروت، بما فيها من إشعار بالتفوق تجاه اللبن

الصورة والأسطورة في مواجهة الموت

عزمي بشارة

1

انتشرت بعد استشهاد يحيى السنوار مُقارنات متعلقة بصناعة الأسطورة انطلاقاً من صورة نهاية المقاتل. ومن الطبيعي أن أول ما يخطر ببال كُتّابٍ ذوي أصول يسارية المقارنة بين صورتين: صورة فعل المقاومة الأخير للسنوار، وصورة تشي غيفارا بعد إعدامه حين عُرِضَ أمام الصحافة مسجّىً محاطاً بضباط الجيش والمخابرات.

لا يقاوم الجلادون إغراء عرض الصور للعموم تباهياً بإنجازهم بعد أن دأبوا على صنع أسطورة الخصم المستهدف (المطلوب حيّاً أو ميتاً)، التي تؤصّل الشر في فردٍ، وتُنسب إليه صفات من نسج خيالهم وعلى قياس مخاوف جمهورهم. وبعدما يشخصنون الشر/ القضية يقعون في الشرك الذي نصبته دعايتهم. فما دام الأمر متعلقًا بشخص، لا بد من عرض نهايته على يدهم، واستعراض تجسيدهم قدَرَ أعدائهم المحتوم. يعميهم هذا الإغراء عن رؤية ما بينته التجارب بشأن المخاطرة في نشر الصورة، فقد تصنع الأسطورة المضادة. ولذلك، لم تكتف إسرائيل بما سرّبه الجنود وأفسد الدراما التي تاق بنيامين نتنياهو إلى أن يكون بطلها، وأصدرت رسميًا الشريط الذي سجلته الطائرة المسيّرة، فألهبت بذلك حماسة ضحايا المظلومين على طول المنطقة وعرضها.

يصنع الأساطيرَ الساسةُ وكُتّاب التراجم والأخبار والأدباء والإعلاميون، ولا تُقصّر الثقافة الشعبية كذلك في صنعها، ويفككها المؤرّخون. أما المؤرخ الذي يسهم في صنعها، فأصبح في عصرنا يعد خائنًا لمهنته. بيد أن مصدر الأساطير، موضوع هذا المقال، ليس تزييف الوقائع، ولا غايتها تفسير الظواهر بحكايةٍ حتى يأتي المؤرخ فيجلو الزيف ويُصحّح المغالطات، بل يعود إلى تأويل الصورة. هكذا أوّلَ الناقد الأدبي البريطاني جون بيرغر الصورة الفوتوغرافية الأخيرة لتشي غيفارا بتشبيهها بلوحتين؛ إحداهما لوحة لرامبرانت بعنوان «درس في التشريح للدكتور نيكولاس تولب»، والثانية لأندريا مانتينا بعنوان «بكاء حول جثمان المسيح». وكما هو معلوم، أُعدِم غيفارا بإطلاق تسع رصاصات على مواضع مختلفة في جسمه؛ لتمويه إعدامه من دون محاكمة، وكي يبدو كأنه قُتل في معركة. لكن الكذبة لم تعمّر أياماً، وانتشرت واقعة الإعدام بأمر من الرئيس البوليفي يوم 9 أكتوبر/ تشرين الأول 1967. وظهرت صورة السنوار يرمي الطائرة المُسيّرة بعصا بعد أن استخدم ما في جعبته من رصاص وقنابل يدوية في اشتباك مع جنود لم يخطر ببالهم أنهم يواجهون من يخيفون باسمه أطفالهم. كانت هذه صورة الملثّم المنهك والجريح الذي يواجه مع رفيقيه مصيره المعروف سلفاً، مقاتلًا في منزل هجَّر الاحتلال أصحابه مثل جيرانهم وأهل مدينتهم. نسف ما نقلته الصورة كلَّ ما دأب الاحتلال على ترويجه عن القيادي الذي يمضي الحرب مختبئاً في الأنفاق، راهناً حياته بحياة الرهائن. وأطلقت المواجهة الأخيرة واستقبال الموت برباطة جأش العنان لخيال الناس، وربما سوف يركّبون على الأسطورة أساطير. صحيح أنهم شهدوا خلال عام كامل مواجهة مئات المقاومين الموت بشجاعة، ولكنهم شهدوا هذه المرّة ما يشاهده العالم بأسره معهم، وجدوا رمزاً مضاداً لروايات الاحتلال ولمخاوفهم هم أيضًا منتصبَ القامة في زمن دوس آلة الحرب الإسرائيلية على كل ما يرتقع عن الأرض، وفي ظل محاولات إسرائيل ومعها حلفاؤها الدوليون والإقليميون تركيع المعنويات أيضاً. لقد ضاعفت إسرائيل رمزية السنوار بتركيز حقدها عليه.

فيما عدا تأويل صورة المقاوم في نهاية طريقه بالأسطورة، لا تتقاطع طرق الرجلين ولا تتشابه. انتمى غيفارا الأرجنتيني الأصل إلى عائلة ميسورة الحال تعود إلى أصول إسبانية وإيرلندية. درس الطب وتبنّى الفكر الماركسي. عندما تقرأ سيرته الملحمية تستغرب من عدد الهوايات الرياضية التي مارسها شابّاً، وتنوّع اهتمامات طالب الطب بالفن والأدب والفلسفة وغيرها. ابن طبقة برجوازية اختار جانب المظلومين أخلاقيّاً، لكنه بالتأكيد لم يكن منهم. استنتج من جولته على دراجة نارية في أرجاء أميركا الجنوبية أن مصدر الظلم فيها واحد، وأن الثورة يجب أن تكون واحدة، وأنها تواجه عدوًا واحدًا هو الإمبريالية الأميركية (وشركاتها الكبرى مثل يونايتد فروتس)، التي عدّها أساس الظلم والتخلّف في هذه القارّة. انضم غيفارا إلى الثورة الكوبية، وأصبح، بعد إطاحة رئيس كوبا فولغنسيو باتيستا في عام 1959، وزيراً ومحافظاً للبنك المركزي ومبعوثًا لكوبا إلى دول عديدة. لكن سعيه إلى خلق البؤر الثورية في أميركا الجنوبية وأفريقيا انتهى به معزولًا مع بضع عشرات من المقاتلين في جبال بوليفيا النائية وسط فلاحين لم يتقبّلوا أفكاره ولا خطابه. ولم يتمكّن من التفاهم حتى مع الجماعات المسلّحة الأخرى. أما أسطورته، أسطورة تحدّي الظلم في أي مكان وفي أسوأ الظروف، ومقولته إن مهمّة الثوري أن يصنع ثورة، فراجتا في أوساط الشباب اليساريين الذين حملوا صورَه الأيقونية خلال حراك الشباب والطلاب في أوروبا الغربية والولايات المتحدة في عام 1968 وحتى النصف الأول من سبعينيات القرن الماضي. أصبح غيفارا رمزاً من رموز الثورة الثقافية والثقافة المضادّة للمؤسسة الحاكمة؛ ثقافة أهلهم في الحقيقة. أما أثره في استراتيجيات النضال ضد الإمبريالية والدكتاتوريات والتغيير الفعلي فظل محدوداً. وقلّد بعض الشباب مظهره من دون أن يتّبعوا خياره في الكفاح الأممي ضد الإمبريالية الأميركية وشركاتها متعدّدة الجنسيات. وما لبثت الديمقراطيات الغربية أن احتوت صورته بوصفها جزءاً من ثقافة البوب في الفن والأدب والسينما. ومن هناك سلكت الدرب المألوف إلى المجمعات التجارية؛ حتى أصبحت صورته تُطبع على أكواب القهوة وقمصان «التيشيرت».

واستشهد السنوار وهو يحارب الاحتلال في وطنه وليس في بلد آخر. إنه سليل عائلة من اللاجئين الفلسطينيين، ابن الفئات الفقيرة المظلومة التي تشاركت العيش وتقاسمت الضيم في قطاع غزّة. لم تسنح له فرصة ممارسة الهوايات، ولا أن يجوب الوطن العربي؛ فالظلم كله الذي يريد متمردٌ أخلاقيٌ باحثٌ عن هوية ذاتية أن يستكشفه كان يحيط به من كل جانب حيث يعيش. دخل السجن في عمر مُبكّر. كان السجن مدرسته، وأصبحت أخوية نزلاء السجن أسرته. وخرج منه بعد عشرين عاماً إلى قطاع غزّة المحاصر، حيث مارست حركته السلطة. لم يسأم السلطة ويغادرها لكي يصنع ثورة في مكان آخر؛ فاحتلال فلسطين مزمن ومديد. صحيحٌ أنه أصبح جزءاً من السلطة التي تدير قطاع غزة، لكنه لم يُغادر مزاج مقاومة الاحتلال وخطابها. لم يغادر فلسطين إلّا مرة واحدة إلى مصر. لم يتبن السنوار فكراً أمميّاً أو يساريّاً أو خطاب ثورة عالمية، وأقصى ما بلغه فكره المصالحة بين إسلاميّته ووطنيته؛ فقد كان إسلاميّاً وطنيًا ينشد الوحدة الوطنية. أصبحت هذه المحلية، هذه الحياة العريضة في مكان ضيق، طريقه إلى العالمية. وعاش حياة قصيرة بما يكفي ليطبق صيته الآفاق.

2

بعد السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023 تشكلت جوقة عالمية بقيادة إسرائيلية وأرسلت العنان للدعاية التي تحمّل حماس، والسنوار شخصياً، ليس مسؤولية ما ارتُكب في ذلك اليوم بحق مدنيين إسرائيليين فحسب، بل تُلقي عليهما أيضًا وزر ما ترتكبه إسرائيل في حربها على غزة، الممتدة حتى اليوم، بحجة أن ما تقوم به من إبادة سببها عملية «طوفان الأقصى» التي ربطت به. إنها فرية الدم في مراتع الكذب. تخترع خطيئة أولى غير الاحتلال، فتذنّب الضحية، ويبرّؤ المجرم خلال ارتكابه الجرم المشهود. وقد نسج بعض العرب على منوالها واحتذوا بمثالها؛ فهؤلاء على ما عهدناهم مظنة الكذب ومطية الهذر، لا يُعتبَر لهم مقال بتعابير ابن خلدون. نقول هذا على الرغم من موقف مشرّدين عديدين بلا مأوى في غزة نفسها منذ ذلك اليوم الذي فتح عليهم أبواب جهنم. في هذه الحالة أيضًا، لا يصح لوم ضحايا حرب الإبادة الذين فقدوا كل شيء، الهائمين بين الركام والخراب، حاملين ما تبقى من عالمهم في أكياس بلاستيكية، وهم لا يؤمنون بأسطورة السنوار ولا بأسطورة غيره. لا تكمن المشكلة هنا، بل في الذين لم يدفعوا أي ثمن، ويتحالفون مع من يرتكب الفظائع، ويشمتون بضحاياها، ويحمّلون المقاومة المسؤولية عن فظائع الاحتلال.

نُصاب بالدهشة لتكرار اسمه على ألسنة زعماء الدول الغربية الكبرى الذين ظهروا في الإعلام بعد استشهاده. يجهلونه، ويردّدون أسطورة إسرائيل عنه؛ فيعدّونه العائق أمام وقف إطلاق النار، ويستقبلون العائق الفعلي (نتنياهو) وكأنه أحد قادة العالم المتحضر، حتى بعدما أن تعامل معه الادعاء في محكمة الجنايات الدولية بوصفه مجرم حرب.

ذهب «العائق» المزعوم، واستمرّت الحرب، وتواصل الكذب بعد أن بان. ورئيس الوزراء الإسرائيلي - الذي يمارس أفظع الفظائع، وهو قصف المدارس والمستشفيات، ولا تردعه أشلاء الأطفال، والذي يُجسّد أحط اجتماع لصفاتٍ بشرية، ألا وهو اجتماع الجبن مع القسوة السادية، والخسّة مع الغرور، والوضاعة مع الاستعراضية، والشغف بالمظاهر، يصافحه زعماء في الغرب، ويقف له برلمان أعظم دولة في العالم لتحيته. إنهم يتنفسون الصعداء لمقتل الفقير ابن الفقير الذي لم تطأ قدماه بلادهم ولا بلاد غيرهم، ولم يحتل أرضًا لأحد.

يتعذّر احتواء الرأسمالية الاستهلاكية الغربية صورة المُلثّم المجاهد ضمن هوامش التعددية الثقافية وتنوّع المشهديات، خلافًا لصورة غيفارا؛ فهي صورة كأداء صعبة الاحتواء، على عكس استيعابها السلس اليسير من المظلومين عموماً في بلداننا. فيمكنك أن تلتقي نموذج السنوار في أي مخيم لاجئين، أو قرية أو حارة فلسطينية: ما من زيٍّ خاص به، ولا حتى محاولة للتميز. خطواته القصيرة والسريعة وجسمه المشدود، والغضب البادي على ملامح وجهه، وهو الغضب الذي قد تنفرج عقده بسرعة عن ابتسامة لدى مقابلة الأطفال والشباب والأسرى السابقين، العفوية التي تعني أيضًا عدم اصطناع التواضع بلا سبب، الثقافة المحدودة التي يوسع الذكاء وسرعة البديهة حدودها، الانتقال السريع من البراغماتية والنزعة العملية جدًا إلى التصلّب الحاد، كما في خيبة الأمل من عدم تجاوب «العالم» مع مسيرات العودة السلمية الغزيرة الضحايا لرفع الحصار عن القطاع. انتمى إلى حركة سياسية مثل عشرات الآلاف من الشباب الفلسطيني، ولكنه وجد ذراعاً مُسلحّاً فيها يرفعه إلى القيادة السياسية. وكان ممكناً أن يواصل نضاله ضمن صفوف التنظيم مثل أي مناضل آخر. لإسرائيل مشكلة حقيقية مع نموذج السنوار، فهو أكثر انتشاراً مما يتصوّره مستعربوها جميعا.

عند استشهاده، شعر الفلسطينيون والمصريون والأردنيون وغيرهم من العرب والمسلمين في مشرق الأرض ومغربها بأنه واحد منهم. ولأنه منهم، اختلط الحزن بالكبرياء وسط الكارثة. تعاطفوا مع الملثم الجالس على أريكة في المبنى المهجور؛ فقد حملت الصورة دلالة عزلة الفلسطيني المقاوم في هذا الإقليم، ومنحتهم صور مقاومته الشعور بالكبرياء بسبب كلية حضور الكرامة في مقابل فقدانها من أنظمة عربية وإعلامها. يصعب أن يستوعب الساسة والإعلاميون الغربيون هذه الواقعة.

أمضينا سنوات في دحض نظريات تنافر الثقافات، ولكن هذا لا يفترض أن يعمينا عن رؤية التناقض بين أسطورة المقاومة وأسطورة الشرّ. لقد بات هذا التنافر فيصلاً بين من يقفون مع كيان استعماري ويتفهمون «دفاعه عن نفسه» بإبادة شعبنا، وبين من يقفون في معسكر ضحايا الاحتلال والظلم، سواء أكانوا يختلفون مع السنوار ويرفضون خياراته، أم يتفقون معه ومع حركته.

(مدير عام المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات)

> استشهد السنوار وهو يحارب الاحتلال في وطنه وليس في بلد آخر. وشعر الفلسطينيون والمصريون والأردنيون وغيرهم بأنه واحد منهم

> يتعذّر احتواء الرأسمالية الاستهلاكية الغربية صورة المُلثّم المجاهد ضمن هوامش التعددية الثقافية وتنوّع المشهديات، خلافًا لصورة غيفارا

غزّة مأساة مستمرّة

بشرى المقطري

يشكّل الصراع جوهر عقيدة النظام الإسرائيلي كياناً استيطانياً هشّاً وطارئاً، يفتقر إلى إمكانية التعايش مع محيطه، ومن ثمّ ترجمته سلوكَ دولةٍ لا سلوكَ عصابةٍ إرهابية، ليتمظهر الصراع في حالاته ومستوياته كلّها في سياساته ضدّ الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة، سواء في الضفّة الغربية أو في قطاع غزّة، إلّا أنّه استطاع تسويق وهم سياسيٍّ بأنّ الصراع والتصعيد العسكري وضعان طارئان فرضهما هجوم حركة حماس في 7 أكتوبر (2023)، وأنّ تعطيل إمكانية تهديدها أمن إسرائيل سيخلق وضعاً مستقرّاً في قطاع غزّة، إلّا أنّ مسارات حربه في القطاع، وبعد عام، تؤكّد أنّ طريق التهدئة (لا السلام) لا يمثّل خياراً بالنسبة لإسرائيل، ناهيك عن خفض تصعيدها العسكري في الإقليم، وأنّها تعمل بوسائلها كلّها لتثبيت وضع دائم يتمثّل في تجذير حالة الحرب وقتل الأبرياء في غزّة، في مقابل استمرار منع التدخّلات الإنسانية لإنقاذ المدنيين المُحاصَرين.

على مستوى الإقليم، انتجت حرب الكيان الإسرائيلي في قطاع غزّة (على مدى عام) مساراً متصاعداً من التوتّرات، أفضى إلى توسيع جغرافيا العنف الذي تقوده إسرائيل ونطاقاته، إذ مثّلت الطرف الرئيس في إدارة معادلة الردع متعدّد الجبهات ضدّ معسكر قوى المقاومة المناهضة لها، بدءاً بحربها في قطاع غزّة ضدّ حركة حماس، حتّى خوضها الحرب ضدّ حزب الله في لبنان أخيراً، ما ترتب عليه بقاء الخيار العسكري متاحاً بالنسبة إلى إسرائيل، وبالطبع غير مشروط بمدىً زمنيٍّ محددٍ، وإنّما بقائمةٍ متغيّرة من الأهداف، إلى جانب توظيف ديناميكية الصراع المتعدّد الجبهات لصالحها، باستمرار رفع مستويات التهديدات على أمنها، في مقابل إفشال مساعي وقفَ إطلاق النار، سواء في قطاع غزّة أو في لبنان، وربطها بالاشتراطات الإسرائيلية. ومع ربط مسارات حرب الكيان الإسرائيلي في غزّة بعملياته العسكرية في لبنان، يعوّل الاحتلال على استمرار الحرب في غزّة لأنها الجبهة الأكثر أهمّية بالنسبة إليه، لإضفاء مشروعية دائمة على تصعيده العسكري في الإقليم ضدّ معسكر المقاومة الإسلامية، وبالطبع ضدّ إيران، وأيضاً للضغط على حلفائه الغربيين للحصول على دعم عسكري وسياسي، بتكريس خطابه الديماغوجي بأنّ هجوم «حماس» على إسرائيل لا يقلّ فظاعةً عن الهولوكوست، ومع أنّ الكيان الإسرائيلي استطاع مدعوماً بآلته العسكرية استهداف حركة حماس، بما في ذلك اغتيالات قياداتها الميدانية، آخرها قتل يحيى السنوار رئيس حركة حماس، ومهندس عملية طوفان الأقصى، فإنّ مقتله، وإن شكّل ضربةً عسكريةً وسياسيةً لحركة حماس، إلّا أنّها تتمتّع بفعالية إسناد مجالها الحيوي قوةً في الأرض، وبمشروعيتها الأخلاقية مقاومةً مسلّحةً ضدّ الاحتلال، ممّا يجعل حرب الكيان الإسرائيلي على «حماس» عبئاً عليه أيضاً. إذ إنّه، وإن مضى في أجندته العسكرية باستهداف مدن قطاع غزّة، وتنفيذ عمليات عسكرية في المخيّمات بهدف تعطيل قدرة «حماس» في تجميع صفوفها، فإنّ هذا الهدف الفضفاض، الذي يبدو أنّه قد يتضمّن قائمةً طويلةً وغير محدّدة من الأهداف، وغامضةً أيضاً بغموض ما يعنيه مصطلح تفكيك حركة مقاومة وطنية ظلّت ناشطةً على مدى ثلاثة عقود، تتحرّك في أرضها، وتشكّل ضمن القوى الأخرى خريطة القوى السياسية المحلّية، إلى جانب بقاء أسباب المقاومة ببقاء الاحتلال الإسرائيلي نفسه، وبالتالي من الصعب تحقيق هذا الهدف عملياً، ناهيك عن تنفيذه في مدى زمني محدّد، إضافة إلى عدم ضمان إسرائيل قدرتها الفعلية في القضاء على «حماس» بشكل نهائي. بالتالي، وفي ضوء استراتيجية الكيان الإسرائيلي وبنك أهدافه العسكرية المفتوحة في قطاع غزّة يعني استمرار حربه إلى وقت طويل، ومن ثمّ تنامي حدّة التوتّرات في منطقة الشرق الأوسط، واستمرار التصعيد في جبهات المقاومة المساندة لغزّة، وأيضاً تصعيدها العسكري ضدّ ايران ومن ثمّ فإنّ إسرائيل، وإن راهنت على قوة الردع، فإنّ ذلك لا يعني بأيّ حال ضمان أمنها.

في حالة إسرائيل، وبمعزل عن الظرف الإقليمي الحالي وتطوّراته، بما في ذلك صراعها مع إيران وحروبها في الجبهات المساندة للمقاومة في قطاع غزّة، فإنّ تنامي التهديدات ضدّها ناشئ من وظيفتها التاريخية كياناً استعمارياً، ودولةَ احتلال، من خلالها يمكن تتبّع السياقات التاريخية والديناميكيات المتولّدة من طبيعة هذا الدور وإفرازاته، ومن ثمّ إدراك كنه العلاقة المتجاذبة بينها وبين أصحاب الأرض، التي تتضمّن نشاط فصائل المقاومة الفلسطينية ومنها حركة حماس، التي إن اختلفنا معها سياسياً أو أيديولوجياً، تبقى معبّرةً عن طبيعة الصراع مع إسرائيل، بما في ذلك تقاطع أهدافها مع حركات التحرّر الوطني ضدّ الأنظمة الاستعمارية، ومن جهة ثانية، تأصّل سياسة الكيان الإسرائيلي العنصرية حيال الفلسطينيين سواء في الأراضي المحتلّة أو في قطاع غزّة حالة مستدامة من الإرهاب والقمع والانتهاك والمصادرة وامتهان الإنسانية، الذي يولّد على الدوام توتّرات بين أصحاب الأرض والكيان المحتلّ، ومن ثمّ يكرّس حالةً ثابتةً من العداء، يشكّل في مستوى آخر أرضيةً محفّزةً للكيان الإسرائيلي لإسناد مظلوميته التاريخية، على الأقل أمام حلفائه الغربيين، بأنّه كيان مهدّد من محيطه، وبالتالي يحتاج إلى قوّة الردع العسكرية من أجل البقاء، وإذا كان هجوم «حماس» على إسرائيل شكّل ذروة استثمار معاني التهديد، فإنّ ذلك يتعزّز بالنسبة إلى الحكومة الإسرائيلية باستمرار الحرب في قطاع غزّة حالةً مستدامةً لتحقيق أهدافها العسكرية، وبالطبع السياسية، من خلال القضاء على إمكانية التفاوض مع الحركة للإفراج عن الرهائن المحتجزين، وذلك بإيجاد معادلة جديدة على الأرض تجرّد «حماس» من إمكانية فرض شروطها طرفاً في مقابل إسرائيل، ومن ثمّ تثبيت الخيار العسكري في قطاع غزّة أولويةً بالنسبة لإسرائيل. الحرب من أجل القضاء على حركة حماس تعني وفق النهج الإسرائيلي الاستمرار في إبادة الفلسطينيين في قطاع غزّة، إذ تستمرّ المأساة الإنسانية في دورة جديدة من العنف والإجرام، من قتل المدنيين إلى تحويل قطاع غزّة جغرافيا معزولةً مغلقةَ المنافذ، ومحاصرةً، تخضع للمعادلة العسكرية الإسرائيلية وأهدافها المتغيّرة التي حوّلت مدن القطاع أرضاً غير صالحة للحياة، بتدمير المساكن وباستهداف المخيّمات والمستشفيات والمدارس، وبتدمير ما تبقّى من بنية تحتية، إلى عزل مدن القطاع بعضها عن بعض، وإعاقة حركة تنقّل المواطنين، فضلاً عن استمرار عسكرة الحياة بجعل قطاع غزّة مسرحَ عملياتٍ للجيش الاسرائيلي ترتّب منه حركة نزوح دورية للسكّان في امتداد القطاع، ومن ثمّ منع أيّ إمكانية لاستقرار المواطنين وتطبيع الحدّ الأدنى من الحياة، وإذا كان حصاد عام كامل من الحرب في قطاع غزّة يحيلنا على فاتورة مستمرّة من القرابين البشرية بمقتل أكثر من 42 ألف فلسطيني، فإنّ التجويع والحصار حتّى الموت هو التجلّي الأكبر للبشاعة والإجرام الإسرائيليين، ففي حين باتت المساعدات الإنسانية الوسيلة الوحيدة للنجاة بالنسبة لفلسطينيين في قطاع غزّة، يستمرّ الكيان الإسرائيلي في إعاقة دخول المساعدات إلى مدن ومخيّمات شمال قطاع غزّة، حيث يواجه أكثر من 400 ألف فلسطيني في مخيّم جباليا المجاعةَ المحقّقة، في ظلّ حالة حصار خانق بهدف تهجيرهم، فيما يمضي الكيان الإسرائيلي في عقاب الفلسطينيين العزّل مزهواً بانتصاراته العسكرية على خصم هو ابن الأرض المستباحة، وبالطبع إفلاته كالعادة من أيّ عقاب أو حتّى مساءلة.

(كاتبة يمنية)

> إن راهنت إسرائيل على قوة الردع، فذلك لا يعني ضمان أمنها، فتنامي التهديدات ضدّها ناشئ من وظيفتها التاريخية كياناً استعمارياً

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads